

بسم الله الرحمن الرحيم
شرح متن ستة مواضع من السيرة
الموضع الخامس

الموضع الخامس : [قصة الهجرة] :

وفيه من الفوائد والعبر ما لا يعرفه أكثر من قرأها ، ولكن مرادنا الآن مسألة واحدة من مسائلها ، وهي: أن من أصحاب رسول الله ﷺ من لم يهاجر - من غير شك في الدين ، ولكن محبة للأهل والمال والوطن - فلما خرجوا إلى بدر ، خرجوا معهم وهم كارهون ، فقتل بعضهم بالرمي - والرامي لا يعرفهم - فلما سمع الصحابة: من القتل: قتل فلان وفلان، شق عليهم ، وقالوا : قتلنا إخواننا فأنزل الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ

كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا) * فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا . . . (الآيات) .

فمن تأمل قصتهم ، وتأمل قول الصحابة : (قتلنا إخواننا) (علم أنهم) لو بلغهم عنهم كلام في سب الدين ، أو كلام في تزيين دين المشركين ، لم يقولوا : قتلنا إخواننا ، فإن الله بيّن لهم وهم بمكة ، قبل الهجرة أن ذلك كفر بعد الإيمان بقوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) .

وأبلغ من هذا ما تقدم من كلام الله تعالى فيهم ، فإن الملائكة تقول لهم : { فيم كنتم } ؟ ولم يقولوا : (لهم : كيف تصديقكم ، فلما قالوا : كنا مستضعفين في الأرض) لم يقولوا : (كذبتم) مثلما يقول الله والملائكة والملائكة للمجاهد الذي يقول : جاهدت في سبيلك حتى قتلت فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل قاتلت ليقال : جريء وكذلك يقال للعالم والمتصدق: كذبت ، بل تعلمت ليقال : عالم ، وتصدقت ليقال : جواد . . . وأما هؤلاء فلم يكذبوهم ، بل أجابوهم بقولهم : (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) .

ويزيد ذلك إيضاحاً للجاهل والعارف : الآية التي بعدها ، وهي قوله تعالى : (إِنَّ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا) فهذا أوضح جداً لأن هؤلاء الذين خرجوا من الوعيد ، فلم يبق شبهة ، لكن لمن طلب العلم بخلاف من لم يطلبه ، بل قال الله فيمن هذه صفته : (صُمُّكُمْ عُمِّيْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) .

فمن فهم هذا الموضوع والموضع الذي قبله ، فهم كلام الحسن البصري : (ليس الإيمان بالتخلي ولا بالتأمني ، ولكن ما وقر في القلوب ، وصدقته الأعمال ، وذلك أن الله تعالى يقول : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) .

أقول : هذا الموضوع الخامس من المواضع الستة التي أدار عليها المصنف - رحمه الله - هذا الكتاب ، ومراد المصنف في هذا الموضوع الخامس الاستدلال بقضية الهجرة في الذين لم يهاجروا مع الرسول ﷺ إلى المدينة ، وقاموا مع كفار قريش لما خرجت قريش لقتال الرسول ﷺ في معركة بدر بينما الله سبحانه وتعالى حكم على هؤلاء الذين قتلوا في معركة بدر أنهم في جهنم وساءت مصيراً ، لأنهم لم يهاجروا مع الرسول ﷺ في هجرته ولأنهم خرجوا مع كفار قريش يكثرونهم ويكثرون سوادهم ووقفوا معهم ضد الرسول ﷺ وأصحابه

مراد المصنف أن يبين أن مسألة البراءة من الكفار والمجافاة للكفار والبعد عنهم من أصول الدين ، وهذا الموضوع يدل عليه فإن هؤلاء المؤمنين لما مكثوا في مكة من أجل المال والأهل والأقارب والأرض ولم يهاجروا إلى رسول الله ﷺ زين المشركون لبعضهم الرجوع عن الإيمان فكفروا ، وبعضهم مكث في محله - يعني في مكة - ولم يهاجر مع قدرته على الهجرة من أجل المال ومن أجل الأرض ومن أجل الأهل والعيال ولكنه بقي على إيمانه ، وبعضهم الآخر مستضعف لا قدرة له ، فحكم الله سبحانه وتعالى على الذين لم يهاجروا ولم يخرجوا مع الرسول ﷺ ووقفوا مع قريش في بدر ضد المسلمين ، حكم عليهم بأنهم في جهنم وساءت مصيراً ، وأهل العلم في هذا الموقف على موقفين أو اتجاهين :

الاتجاه الأول : يقولوا : كانت الهجرة من مكة إلى المدينة واجبة ، ومعلوم أن الهجرة التي كانت في زمن الرسول ﷺ والتي يقال عن صاحبها أنه من المهاجرين كانت من حين هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة إلى فتح مكة ولا هجرة بعد الفتح ، فلا ينال فضل الهجرة إلا من هاجر قبل الفتح ولا هجرة بعد الفتح ، فقال هؤلاء كانت الهجرة واجبة ومن شرط الإيمان ، فمن لم يهاجر مع الرسول ﷺ ومكث في مكة وخرج معهم فهذا قد أبطل إيمانه وقبل تزيين الكفار له

الاتجاه الثاني : ومن أهل العلم من قال ، لا ، الذين لم يهاجروا على نوعين :

النوع الأول : زين له المشركين الكفر وترك الإيمان فطاوعهم على ما دعوه إليه فهؤلاء كفروا بعد إيمانهم

والنوع الثاني : بقوا في مكة لزينة الأهل والمال وهم من أهل الإيمان وهذا الفعل الذي فعلوه فعل محرم يأتهموا عليه ويعاقبوا فيه بالنار ، ولكن لا يلزم منه أنهم كفار ، وقالوا : القضية في كل شخص بحسبه ، فإن الحكم بالكفر لابد فيه من ثبوت شروط وانتفاء موانع

المصنف - رحمه الله - الذي يظهر من تصرفه أنه يختار الاتجاه الأول ، وهو أنه يرى أن كل من لم يهاجر مع الرسول ﷺ وآثر البقاء في مكة من أجل المال والأهل والأرض فهذا لم يحقق ركن البراءة من المشركين وأهله مع قدرته ، إذا كان قادراً ولا مانع يمنعه من الهجرة فهذا لم يحقق ركن أو أصل البراءة من المشركين ومن الشرك ، وآثر المال وآثر الأرض وآثر الأهل والعيال على الإيمان فإن هذا لا يصدق في إيمانه ولا يصدق في دعواه الإيمان ، ولذلك الرسول ﷺ لما وقع العباس أسيراً من ضمن أسرى قريش عند الرسول ﷺ وكان العباس في ذاك الوقت يقول أنه يكتنم إيمانه لم يقبل الرسول ﷺ منه وقال قد قضى الله في أمرك أنك لست من الذين هاجروا مع قدرتهم وآثرت البقاء عند المال والأرض والأهل فلم يقبل منه دعواه أنه كان مؤمن ، وهذا يؤيد اتجاه المصنف - رحمه الله -

تبقى مسائل في هذا الموضوع :

المسألة الأولى : قصة الهجرة معروفة وهي أن الرسول ﷺ لما اشتدت وطأة قريش عليه وعلي أصحابه - رضوان الله عليهم - أمر الضعفاء منهم أن يهاجروا إلى الحبشة إذ كان فيها ملك لا يظلم من يكون عنده ومكث الرسول ﷺ في مكة ينتظر أمر الله سبحانه وتعالى له ومن بقي من الصحابة مكث صابراً في مكة ثلاثة عشر سنة ، تجدون في بعض الروايات أنه مكث في مكة عشر سنوات وهؤلاء الذين يقولون مكث في مكة عشر سنوات ينقصون منها الثلاث سنوات التي كان محبوساً ﷺ في شعب على بمكة ، ومنهم من يحذف من الثلاثة عشر سنة الوقت الذي فتر فيه عليه الوحي فيقولون عشر سنوات

بعد أن أذن الله عز وجل له بعد أن اشتدت وطأة قريش عليه وعلي الصحابة ، هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وأمر الصحابة أن يهاجروا ، وكان الواجب أن يتمثل الصحابة لهذا الأمر ولا يتخلف عن الهجرة إلا المستضعفين فهؤلاء الذين لا قدرة لهم على الهجرة " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " و " لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها " " وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " متفق عليه

بقي اللوم على من ؟ بقي اللوم على من كان قادراً على الهجرة ولم يهاجر ، هؤلاء الذين بقوا منهم من قبل الفتنة وافتتن وعاد إلى الكفر ، ومنهم من بقي يضمن الإيمان في قلبه ، يقول أنا مؤمن ومصدق لكن أريد أن أجلس عند أهلي وعبالي وأرضى فحكم الله في هؤلاء بقوله تعالى " إن الذين توفاهم الملائكة " أي يوم بدر ، الذين قتلوا ممن يقول أنه يكتنم الإيمان في قلبه ، أما الذي افتتن انتهى فإن أمره واضح بقينا في الذين يكتنمون الإيمان في قلوبهم بدعواهم ، يدعون هذا أن عندهم إيمان فمنهم من قُتل في بدر فالصحابة لما علموا أن فلان قتل ممن كانوا يظنون فيه الإيمان كأنهم تأثموا

فأنزل الله قوله " إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم " ؟ أى قالت الملائكة لهم فيم كنتم ؟ لم لم تخرجوا وتهاجروا مع رسول الله ﷺ لم مكثتم فى مكة وأنتم قادرين " قالوا كنا مستضعفين فى الأرض " لم تكذب الملائكة قولهم إنا مستضعفين فى الأرض ، لا ، " قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها " ؟ لم تكذب الملائكة قولهم " كنا مستضعفين فى الأرض " صحيح أنتم كنتم مستضعفين لكنكم كنتم تقدرّون على الخروج والهجرة لم تكذبهم فى قولهم " كنا مستضعفين "

يقول المصنف لو كانت كلامهم هذا باطل غير حقيقى لرده الله ، كما ثبت أن الرجل يؤتى به يوم القيامة فى الحديث الذى جاء عن الرسول ﷺ " إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي فى النار " رواه الإمام مسلم

فقال لو كان قولهم " كنا مستضعفين فى الأرض " كذباً غير حقيقى لا يصدقه واقعهم لكذبهم الملائكة ، لكن سكوت الله عز وجل وإقرارهم على هذا الكلام " كنا مستضعفين فى الأرض " دليل على أنهم قالوا الحق ، والله عدل عن الرد على هذا وقبله منهم ولكن اعترض بأمر آخر " قالوا كنا مستضعفين فى الأرض " قالت الملائكة " ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً " انتهى الموضوع فهذا حكم من الله سبحانه وتعالى بأن المرء إذا كان قادراً على إظهار البراءة من الكفار وامتنع عن ذلك رغبة فى أهله وماله وعياله والدنيا والأرض والمكانة والرفعة التي هو عليها فهذا لا يحكم بإيمانه ، كما لم يحكم الله سبحانه وتعالى بإيمان هؤلاء الذين ادعوا ذلك ادعوا أنهم مؤمنين

ولذلك يقول الحسن البصرى { ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكنه ما وقر فى القلب وصدقه الجوارح } أنت تقول انك مؤمن لم لم تظهر البراءة من الكفر وأهله مع قدرتك ، لكن لاحظوا البراءة بالمعنى الذى ذكرناه لكم فى المحاضرة الماضية ، لم لم تظهر البراءة من الكفر وأهله ؟ لم استسقت معهم ؟ لم مكثت بينهم ؟ لم لم تخرج من ديار الكفر ؟ ألم تسمع أن رسول الله ﷺ يقول " ناراً لا تترائى نار مؤمن ونار مشرك " ؟ ألم تسمع إلى أن رسول الله ﷺ يقول " إن الله ورسوله برئ من مسلم بين ظهرائى مشركين " ؟ كيف تقيم فى أرض الكفار ؟ كيف تمكث عندهم وأنت قادر على الخروج ؟ وأنت مستضعف لا تستطيع إظهار دينك

وبعض الناس لا يعرف معنى إظهار الدين يظن أن مجرد إقامة الصلاة هذا إظهار دين ، لا ، إظهار الدين أن تستطيع إظهار الصلاة وإظهار شعائر الدين وأن تستطيع أن تقول أنتم كفار ونحن مؤمنون ، أنتم من أهل النار ونحن من أهل الجنة ، تقول آمنوا بالله وبرسوله اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، لا تستطيع أن تفعل هذا ، الآن المرأة تُحارب في الحجاب في أوروبا ، الآن الرجل يحارب في اللباس ، اتصل علي بعض الإخوة يقول : إذا لبست اللباس الشرعي لا أجد أحد يوظفني ، وإذا أطلقت لحيتي أبعدونني ، يقول : لا بد حتى أعمل أن ألبس غير اللباس الشرعي وأن أحلق لحيتي وأن أفعل وأفعل ، هل هذا إظهار دين ؟! إذن يُخشى على من يمكث على هذه الحال في بلاد الكفر مع قدرته على الهجرة إلى بلاد الإسلام الإثم العظيم ويُخشى عليه الافتتان بما عند الكفار ، ويكفى له زاجراً حديث الرسول ﷺ " إن الله ورسوله بريئان من مؤمن بين ظهري مشركين " .

نقول : فالآية حكمت " فأولئك ماوأهم جهنم وساءت مصيراً " انتهى الأمر ، " إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان " ما هو وصفهم ؟ " لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً " إذن الآية تثبت أن هناك أناس يدعون الإيمان في مكة قبل معركة بدر من هؤلاء الناس من خرج مع الكفار يتكثروا به المشركون ، خرج معهم إلى بدر فكان ممن قُتل من الكفار علي أيدي المؤمنين وما كان الذي قتلهم يعلم أنهم فلان أو انه فلان ممن يُعلم أنه كان يكتُم إيمانه ، فالآية بينت أن الناس الذين بقوا في مكة بعد هجرة الرسول ﷺ على ثلاث أحوال :

الأول : أناس لا شك في كفرهم وهم ممن قبل تزيين الكفار وافتتن بفتنتهم وارتد فهؤلاء كفار

الثاني : وأناس يكتُمون الإيمان وهؤلاء على نوعين :

أ- كلهم لا يستطيعون إظهار الدين مستضعفين ، لكن منهم من يقدر أن يهاجر ومنهم من لا يقدر أن يهاجر ، فالذي يقدر أن يهاجر ولم يهاجر وقُتل في بدر قال تعالى " فأولئك ماوأهم جهنم وساءت مصيراً "

ب- والذي لم يكن قادراً على الهجرة وكان من المستضعفين ولا يملك حيلة ولا يهتدى سبيلاً أي طريقاً للخروج فهؤلاء " عسى الله أن يعفو عنهم " وعسى من الله واجبة

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا حكم الله في الصحابة الذين لم يهاجروا لماذا ؟ لأنهم مكثوا بين ظهري الكفار مع قدرتهم على الهجرة وإظهار الدين ، بقاؤهم أي لا يستطيعون إظهار الدين تعلم حقيقة مسألة البراءة من الكفر وأهله ، إذا الله كفر هؤلاء لأنهم كانوا يقفرون على إظهار البراءة من الكفر وأهله إذا هاجروا ، ومع ذلك مكثوا ورضوا بكونهم مستضعفين لا يستطيعون إظهار الدين ، علمت خطورة قضية مسألة البراءة ، وعلمت حقيقة أن الإيمان ليس بالتمنى ولا بالتحلي ولكنه ما وقر في القلب

المسألة الثانية : أن موضوع الهجرة بعد فتح مكة انتهت الهجرة التي ينال أصحابها الفضل والشرف التي يقال عن أصحابها أنهم من المهاجرين ، كل من جاء قبل فتح مكة يعتبر ماذا ؟

فكل من هاجر إلى الرسول ﷺ قبل فتح مكة فهو من المهاجرين ، لكن الرسول ﷺ يقول " لا هجرة بعد الفتح " رواه الإمام البخارى فى صحيحه

نقول مراد الرسول ﷺ تلك الهجرة التي كان أهلها ينالون بها فضل ووصف أنهم من المهاجرين ، فهل تبقى هجرة بعد ذلك ؟ نقول نعم ، تبقى أنواع من الهجرة :

تبقى الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ، تبقى هجرة المعاصى والذنوب وتركهم وقد قال ﷺ " المهاجر من هجر ما نهى الله عنه " رواه الإمام البخارى فى صحيحه

وتبقى هجرة أصحاب المعاصى والكبائر والبدع وتركهم ونبذهم فإن هذا أيضاً من وجوه الهجرة التي تبقى

المسألة الثالثة : قضية أن { الإيمان ليس بالتمنى ولا بالتحلى ولكنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل } ، هذه قضية مهمة لا بد أن ينتبه إليها المؤمن ، بمعنى أن بعض الناس يقول : يا أخى الإيمان فى القلب ، لما تقول له يا أخى لا يجوز هذا اطلق لحيتك ، لا يجوز هذا قصر ثوبك ، لا يجوز هذا أنت تفعل كذا ، يقول يا أخى الإيمان فى القلب ويستدل بحديث الرسول ﷺ أنه قال " إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " رواه الإمام مسلم

هكذا يقولون : فنقول له يا أخى **أولاً :** هذا الحديث أكمله أنت لم تكمله " ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " أكمل الحديث

ثانياً : نقول : لو كنت صادقاً فى إيمانك لانفعلت جوارحك بما يصدق هذا الإيمان أما ترى إلى قول الرسول ﷺ " ألا وإن فى الجسد مضغة : إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " متفق عليه

فمن كان فى قلبه ذرة من الإيمان لا بد أن تنفعل جوارحه بما يدل على هذه الذرة ، ولذلك كان الفرقان بين أهل السنة والمرجئة فى مسألة الإيمان أن المرجئة تصوروا إيمان بلا عمل ، أما أهل السنة لا إيمان عندهم بما لم يصدق فى الجوارح يعنى من العمل ، فلا إيمان إلا بعمل ، عندك إيمان فى قلبك بقدر الذرة تظهر قدر الذرة فى جوارحك ، لا بد أن يظهر أثر الإيمان ، ولا يتصور أن إنسان يقول أنه مؤمن ويمكث عمره مع القدرة وعدم المانع لا يركع لله ركعة ولا يصوم لله يوم ولا يفعل طاعة ولا يذكر الله ويقول أنا مؤمن ، المرجئة تصوروا هذا أما أهل السنة لا يتصورون ذلك ، فالإيمان ليس بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، فلا بد من العمل يصدق هذا الإيمان ، فإذا حصل العمل الذى يصدق الإيمان فصاحبه إما أن يستكثر من الطاعات فيزيد إيمانه وإما أن يتقلل من الطاعات فينقص إيمانه ، وقد ينقص الإيمان حتى يزول ، قد يكون الإيمان مثل الجبال وقد ينقص حتى يزول ، ولم يعد هذا الرجل يُحكم عليه باسم الإيمان

فلا بد أن تعلموا أن الإيمان يزيد وينقص وقد ينقص حتى يذهب ، والرسول ﷺ أشار إشارات إلى نحو هذا المعنى مثل حديث الرسول ﷺ قال : " تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضربه فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه " رواه الإمام مسلم

كيف على الحصير عودًا عودًا ؟ أي : لو إنسان نام على الحصير ألا يترك الحصير أثره على كتفه ؟ يقول ﷺ الفتن تترك أثرها فى القلوب كما يترك الحصير أثره على الجسد عودًا عودًا ، كالعود بجوار العود فى الحصير فى جسده ، كذا الفتن يظهر أثرها على القلب كآثر الحصير على البدن عودًا عودًا والآخر اسودًا مربادًا أى : كالهباب الأسود الذى يكون على القدر وهو على النار ، أى هذا الرباد يكون على القلب

الكوز : هو الإناء إذا كان مائلًا هل يستقر فيه ماء ؟

مجخيًا : أى مائلًا

اقرأوا قوله تعالى " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون " اذن هذا الحديث بين أن القلب تترك فيه الذنوب نكت سوداء ، ما هى الخطورة يا صاحب المعصية ؟ ما هى الخطورة يا صاحب الكبيرة ؟ أنك قد تذنّب الذنب ويكون آخر منفذ للإيمان إلى قلبك فيرين الران إلى قلبك ولم يعد يستطيع الإيمان أن يرجع ، كما قال ﷺ فى الحديث الآخر " إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان كان عليه كالظلة فإذا انقطع رجع إليه الإيمان " رواه أبو داود والترمذى وصححه الإمام الألبانى

ما أدراك أن هذه المرة لما تعصى الله تكون آخر نكتة فى القلب يرجع منها الإيمان يختم عليها بالران ، ويرجع الإيمان لا يلاقى مكان ؟ كثير تجد أناس حالهم هكذا إلا من رحم الله وهو لا يدري وليس فى قلبه إيمان الران غطى على كل قلبه وهو لا يدري ولا يوجد إيمان ، والسبب مثل هذه الصورة ، لذلك أهل السنة ماذا يقولون ؟ يقولون : الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وقد ينقص حتى يزول وقد يكون الإنسان يشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله ، والحقيقة أنه ليس مؤمناً قد يكون ليس فى قلبه ذرة إيمان ، ران على قلبه لذلك جاءت فى الأثر عن بعض السلف أنه قال [إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلأؤها بالاستغفار] كيف ؟ الاكثار من الاستغفار ، الاكثار من ذكر الله ، يلوم الإنسان نفسه على فعل الطاعة أنه لم يزيد ويلوم نفسه على فعل المعصية لماذا فعلها ، والإنسان إذا أذنب يبادر إلى التوبة يبادر إلى الاستغفار ، يخشى ويخاف الله ، كيف افترق حال المذنب الذى يعرف انه مذنب وافترق حال الذى يفعل الذنب ولا يشعر بأنه مذنب ، كيف افترق حال الصغيرة مع الإصرار والكبيرة مع الاستغفار ، إذن الإيمان ليس بالتمنى ولا بالتحلى ولكنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، مقصود المؤلف أن البراءة من الكفر وأهله إذا وُجدت فيك لا بد أن يظهر ما يصدقها ، إذا الله لم يعذر من كان يكتّم الإيمان فى قلبه فى مكة لمكثته من أجل الأهل والمال والولد والأرض وحكم بأنهم كفار فما بالك بغيرهم